المنهج التأثري في النقد العربي القديم

الحسن بن بشر الآمدي (ت نحو ٣٧٠هـ) وكتاب

(الموازنة بين الطائيين)

الدكتور . عبد الكريم الأشتر

آ ـ ملامح تكوينه ومصادر درسه :

١ ـ اصله من آمد (من ديار بكر ، إلى الغرب من دجلة) ويقال : انه ولد في البصرة (النديم يقول : إنه من أهل البصرة)(١) . أخذ اللغة والنحو في بغداد عن الأخفش والحامض والزجاج وابن دريد وابن السراج ونفطويه وغيرهم(٢) ، وروى الأخبار . وكان يعد عالماً بالشعر ومعانيه ، حسن الرواية والفهم ، سريع الادراك ، صاحب دراية وحفظ(٣) . وكان يكتب لبعض القضاة والمسؤولين في البصرة وبغداد . يوصف في المصادر « بكثرة الشعر وحسن الطبع وجودة الصنعة(٤) » ، وبأنه عالم

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ٧٧/٨ ومعظم الكلام مأخوذ عنه ، في مواضع متفرقة من الترجمة (٧٥/٨ ـ ٩٣) ، وانظر أيضاً الفهرست ٢٢٧ ـ طبعة المكتبة التجارية ـ دون تاريخ .

(٢) المصدر نفسه ٨٦/٨

(٣) المصدر نفسه ٧٥/٨

(٤) المصدر نفسه ٨٧/٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فاضل لا يجارىٰ . ويوصف بسلامة التصنيف وجودة التأليف وبتعاطي مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب[1] . هذه جملة ما نعرف من اخبار حياته وثقافته ، لخصناها في هذه الأسطر القليلة . فلا بد اذن من أن نعود إلىٰ الكتب التي ألفها ننظر فيها وفي اسمائها وموضوعاتها لنوسع من معرفتنا به وبتكوينه ، بما يعيننا على فهم منهجه في النقد ، وهو المنهج الذي ارتضاه بحكم هذا التكوين ، وأرساه على تفسير للعمل الشعري استخلصه لنفسه من درس تراث العرب الشعري دراسة صبر وتأن وتحليل .

٢ ـ خلف الآمدي ، على ما تقول المصادر في ايدينا ، اربعة عشر كتابا ، ربما كان ادخل بعضها في كتاب الموازنة . على أنه لم يتبق لنا منها إلا كتابان احدهما (الموازنة) ، والثاني كتاب في التراجم اسمه (المؤتلف والمختلف) ، يدل على معرفة بتاريخ الشعر عند العرب وتتبع دقيق لرجاله ، وتنسيق مدروس لأسمائهم وكناهم والقابهم وانسابهم (طبعه سنة ١٣٥٤هـ المستشرق كرنكو مع كتاب معجم الشعراء للمرزباني) . وفي كتبه الأخرىٰ ما ينبئ أنه وصل في اللغة الىٰ مستوىٰ التأليف في بعض مسائلها الدقيقة (ككتاب الحروف من الأصول) في الأضداد (رآه ياقوت في نحو مائة ورقة) و (فعلت وافعلت) الذي رآه ياقوت ايضاً وقال عنه : « غاية لم يؤلف مثله » . يعني أنه وصل إلىٰ مرتبة متقدمة جداً في اللغة والنحو ، حتىٰ لقد أدخله القفطي في كتابه (انباه الرواة على انباه النحاة ١/٢٨٥) والسيوطي من بعده في (بغية الوعاة : ٢١٨) . فهذا الذي يحقق اخذه عن شيوخ اللغة والنحو في عصره ممن اشارت اليهم المصادر كما رأينا . ثم يستأثر الاهتمام النقدي بمعظم الكتب المتبقية ، فبعضها ينحو فيه نحوا نقديا

(١) إنباه الرواة للقفطي ١/٢٨٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عاما ككتاب (الخاص والمشترك) في معاني الشعر الذي يغلب أن يكون تناول فيه مسألة السرقات الشعرية وما يعد من المعاني تراثاً عاماً مشتركا بين الشعراء ، وما يعد ملكاً خاصاً للشاعر ينسب إليه السبق فيه . وكتاب (نثر المنظوم) الذي توحد بعض المصادر بينه وبين كتابه السابق . وكتاب (في أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما) الذي يبدو أنه تناول فيه أيضا مسألة السرقات التي شغلت نقادنا في القديم زمنا طويلاً . وكتب اخرىٰ ينحو فيها نحوا نقدياً محضاً على نحو ما فعل في كتاب (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) ككتاب (معاني شعر البحتري) الذي شرح فيه ، على ما يبدو لنا ، الأبيات التي بدت له مستغلقة من شعر شاعره الذي يحبه ويريد أن يقرب شعره من الآخرين[١] وكتاب (تفضيل شعر امرئ القيس على الشعراء الجاهليين) الذي يشير إلىٰ استبحار الآمدي في شعر الجاهلية وتقليب النظر فيه ، وكتاب (الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه ابا تمام) ، ويرد فيه على الناقد احمد بن عبيد الله بن عمار القطربلي (ت نحو ٣١٩هـ) الذي كتب رسالة اسماها (الفريد) ملأها بما رأىٰ أن أبا تمام اخطأ فيه ، في الألفاظ والمعاني ، فرد عليه الآمدي ورماه بالتحامل علىٰ أبي تمام[٢] . وكتاب (تبيين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر) الذي ألفه لابن العميد وقرأه عليه . وهو الكتاب الذي نأسف لضياعه أشد الأسف

---

(١) يقصد بمعاني الشعر في تراثنا القديم شرح معاني الأبيات المستغلقة الغامضة، ككتاب (المعاني الكبير والمعاني الصغير) لابن قتيبة ، وكتاب (معاني الشعر) للأشنانداني وغيرها .

(٢) ينبغي أن يكون القطربلي هذا بالغ مبالغة شديدة في نقد أبي تمام حتىٰ تصدىٰ الآمدي ، وهو الذي يرمىٰ بالتحامل على الشاعر ، للرد عليه . ولا يبعد أن يكون هذا الكتاب جزءاً مفقوداً من أجزاء الموازنة العشرة ، في تقسيم الآمدي لكتابه ، في الأصل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لأنه كان بالغ القيمة في توضيح المنهجين الأساسين في نقدنا القديم على لسان شيخ المذهب الثاني الذي يعارض تقنيات قدامة الذهنية التي أملاها تأثره الحاد بما فهم من كتب اليونان النقدية وغيرها ، وكان ترجم بعضها ايامه إلىٰ العربية والسريانية . وكتاب (ما في عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ)(١) الذي ألفه أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا الاصبهاني (ت٣٢٢هـ) وتأثر فيه على ما يبدو بابن قتيبة في مقدمته لكتاب (الشعر والشعراء) في الاحتفال بالمعني في العمل الشعري ، وفي تثقيف الشكل الشعري ، وبناء الشعر بناء متصلاً متلاحما على نحو ما يكون التلاحم في الرسائل النثرية ، على مقتضىٰ قوله : (الشعر رسائل معقودة ، والرسائل شعر محلول) . فهذه الكتب الثلاثة تقطع بأن الآمدي استوعب التراث النقدي العربي الذي كتب قبله استيعابا ممتازاً وصل فيه إلىٰ مستوىٰ الرد عليه ، مما خالف فيه قدامة الذي نص في مقدمة كتابه (نقد الشعر) على أنه لم يؤلف قبله في نقد الشعر كتاب يبين جيد الشعر من رديئه .

ويبقىٰ من الكتب التي خلفها الآمدي كتابان لا يخلوان من عمق الدلالة على ثقافته التي استغلها في النقد ، وتمرسه بالعمل الشعري . احدهما كتاب (في شدة حاجة الإنسان إلىٰ أن يعرف نفسه) ويشير الىٰ قدرة واعية على التأمل في حقائق النفس البشرية ، ولا يبعد أن يكون اطلع فيه على بعض ما نقل الىٰ العربية من الفلسفة اليونانية التي كانت تتخذ لها شعارا (اعرف نفسك) . والكتاب الآخر ديوان شعر(٢) يثبت أن الآمدي عانىٰ هذه الصناعة وتمرس بأساليبها وخبر دقائقها(٣) .

(١) يرد في بعض المصادر باسم (نقض عيار الشعر) .

(٢) يقول ياقوت : « انه يقع في مائه ورقة » : ٨٦/٨

(٣) نقلت بعض المصادر مقاطع من شعره هي كل ما تبقىٰ لنا منه : انظر نماذج منها في معجم الأدباء لياقوت وفي انباه الرواة للقفطي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٣ ـ فهذه الكتب التي استعرضناها اذن على هذا النحو تثبت أن هذا الناقد الكبير وفر لنفسه من الثقافة والاطلاع والخبرة والدرس ما أعانه على أن يبلغ في كتاب (الموازنة) ، اكبر كتبه النقدية التي تبقت لنا لحسن الحظ ، المرتبة الرفيعة التي يشغلها في النقد ، وأن يصل إلىٰ منهج يجمع فيه بين رهافة الذوق والتمرس بالعمل النقدي واكتساب خبراته ، وبين سعة المعرفة الموضوعية باللغة وأسرارها والأدب ورجاله ومذاهبهم في القول ، وبالنقد وقضاياه ، وبالنفس البشرية وحاجة الانسان إلىٰ معرفة خفاياها ، مما مكنه من أن يعلل لتأثره الشخصي تعليلا يحاول أن يكون مقنعا حتىٰ يسوغ عند الآخرين ، وهو ما نجد أثره واضحا في كتاب الموازنة ، وبه ، أعني برهافة هذا الذوق ، وبصواب هذا التعليل ، بلغ الآمدي مبلغه في النقد فليس غريباً من بعد أن يوصف في مصادرنا القديمة بما وصف به من العلم بالشعر ومعانيه ، والاتساع التام في الأدب ، ومن حسن الرواية والفهم وسرعة الادراك ، وبأنه صاحب دراية وحفظ ، وبأنه حسن الطبع ، وبأنه عالم لا يجارىٰ وليس غريباً أن يتجه ناقد موهوب كالآمدي الوجهة التي اتجهها في النقد ، بعد أن توفر له هذا التكوين الذي قام على وعي ممتاز بتراث العرب اللغوي والأدبي والشعري بخاصة ، فيتمسك بمفهوم العرب للشعر وخصائص العمل الشعر عندها ، ويذوقه بذوقها ، ويصدر فيه عن رأيها وتفسيرها للآراء والمعاني والألفاظ والتراكيب والصور .

ب ـ كتاب (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) :

١ ـ نقف الآن عند كتاب الموازنة . فقد كتبه الآمدي في عشرة أجزاء[١] ، وطبع أول ما طبع منذ أكثر من مائة عام (١٢٨٧هـ) ، في

(١) معجم الأدباء لياقوت ٨/٨٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ، طبعة ناقصة لنقص المخطوط الذي استندت اليه . وطبع بعدها عنها طبعات متعددة اتصفت كلها بهذا النقص والتشويه ، حتىٰ اتيح لأحد المحققين (السيد احمد صقر) أن يصل إلىٰ مخطوطات أتم ، فأعاد نشره . ونشر منه إلى اليوم مجلدين ، وسمعتُ أنه كان ينوي أن يردفهما بمجلد ثالث مما اجتمع لديه من مواد الكتاب الضائعة لولا أن الموت اخترمه رحمه الله .

٢ – ويقع الكتاب في مجمله ، ضمن مخطط واضح بينه الآمدي في مطلع الكتاب ، بعد أن صور الخصومة بين المذهبين ، على لسان ممثليهما ، في محاورة مثيرة . فهو يبدأ فيذكر طرفا من سرقات أبي تمام واحالاته وغلطه وساقط شعره ، ثم يردفهما بمساوئ البحتري في أخذ ما أخذه من معاني أبي تمام وغلطه في بعض معانيه . ثم يبدأ الموازنة بين قصيدة لأبي تمام وأخرىٰ للبحتري ، يختارهما متفقتين في الوزن والقافية وحركة الروي . ثم يوازن بين معان مفصلة لأبي تمام في موضوعات مختارة تتفق مع معان مثلها للبحتري في الموضوعات نفسها . ثم يخرج من الموازنة بالحكم (وهو في صالح البحتري) ليذكر الجيد من معاني كل شاعر منهما مما لم يتح للآخر مثله . ثم يعقد جزءاً لصور التشبيه في شعريهما وجزءاً آخر للأمثال يختم بهما الكتاب . ثم يلحق به اختيار من شعر الرجلين يؤلفه على حروف المعجم « ليقرب تناوله ، كما يقول ، ويسهل حفظه وتقع الاحاطة به » . هذا مخطط الكتاب ، نفضل أن ننظر فيه ، في ضوء بيان مركز لحقيقة المذهبين المتصارعين وحدودهما حتىٰ يسهل علينا فهم الموازنة التي كتب الآمدي لها كتابة هذا .

٣ – بعض الباحثين (الدكتور أمجد الطرابلسي)[1] يرىٰ « أن

(١) La critique poétique des Arabes P. P 92 – 3

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشاعرين كليهما يختاران على الإجمال ألفاظاً موافقة للعصر ، وقد يلجأان بحكم الضرورة أو بحكم الاعجاب بما يشيع في عصرهما من حب الإغراب (Le snobisme) الىٰ الألفاظ القديمة ، على أن كلف أبي تمام بها أبلغ من كلف صاحبه البحتري . فلهذا يعد شعره أسهل من شعر أبي تمام وأقرب إلىٰ الطبيعة وأشد استواء . كلا الشاعرين يميل إلىٰ الزينات البديعية ، ويتجاوز في استخدامها القدامىٰ ولكن كلف أبي تمام بها أشد . وإذا كان في شعره ابتكار أوسع في التعبير فإن هذا ما يجعله أثمن . ثم ان كلا الشاعرين يعود إلىٰ المعاني القديمة ، على أن ميل البحتري ، على الإجمال ، اليها أشد . فهو يولي تجويد التعبير وكماله أهمية أكبر مما يولي جدة المعنىٰ . أما أبو تمام فهو مبتكر لا ينفذ ابتكاره . يسمو في معانيه ويرتفع ولكنه ينحط ويسف . وعلى الإجمال فإن شعر أبي تمام أكثر جدة وأكثر قوة ولكنه أكثر مآخذ نقدية . أما شعر البحتري فهو أقل جرأة على الجديد ، ولكنه أشد استواء ، ويمكن أن يقال : ان البحتري أوفىٰ لتقاليد الشعر العربية ، فلهذا عد وأصحابه ممثلين للقديم ، على حين يبدو شعر أبي تمام بجانبه ممثلا للجديد . ومن هنا بدت الخصومة بين البحتريين والتماميين كما لو أنها صراع جديد بين القدامىٰ والمحدثين » .

نعتقد أن ما قاله الدكتور الطرابلسي يرمي إلى وصف المظاهر الخارجية للعمل الشعري في كلا المذهبين . فهو ، من ثم ، لا يقصد إلى بيان جوهر الشعر فيهما من حيث هو تصوير لحقائق النفوس وحركاتها العميقة لا يعرض للغة والمعاني المبتكرة إلا من حيث تكون هذه وسيلة لبلوغ تلك الغاية . فما نستطيع إذاً أن نقف فيه على حقيقة المذهبين المتصارعين وإن وقفنا على خلافهما في الوسيلة الشعرية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٤ – ويذهب الدكتور مندور[١] في رأينا مذهبا آخر حين ينفي عن الخصومة ما ليس من حقيقتها (التعصب للقديم ، وكفر أبي تمام ، وصعوبة شعره ، والطعن في شعره التماسا للشهرة) . ويقرر أن عناصر الخصومة الحقيقية تكمن في صدق الشعر وقربه من المألوف عن طريق استعانته (بمعطيات الحواس المباشرة التي هي مادة الشعر وسبيله إلىٰ اثارة الصور في نفوس السامعين ، وبعث الأصداء الملازمة للواقع[٢]) . فالخلاف كما يقول « في معدن الشعر »[٣] . ذلك أن أبا تمام ، كما يقول معاصروه من النقاد ، أراد البديع فخرج إلىٰ المحال ، و« اسرف واقتسر وضرب في عالم المجردات » ، على حين كان الشعر عند العرب « يصاغ من معطيات الحواس المباشرة ، بعيدا عن التجريد والاغراب » . حقيقة الصراع اذن عند الدكتور مندور تكمن في حقيقة الشعر لا في وسائله التعبيرية . أو لعله في وسائله التعبيرية من حيث ارتباطها بحقيقته العميقة .

٥ – وما تزال هناك في رأينا كلمة تضاف إلىٰ الموضوع ، موضوع الصراع بين المذهبين . فإن العملية الشعرية عند أبي تمام ، في مجموعها ، طغىٰ عليها العمل الذهني فأخرجها عن حقيقتها الشعورية ، وأطفأ حرارتها أحيانا ، وسبح بها في عالم المجردات الغامض ، حتىٰ « خرج إلىٰ المحال » كما يقول نقادنا القدامىٰ . « واسرف واقتسر » ومال إلىٰ « الاغراب في اللفظ والمعنىٰ » ، والتعمية والاغراق في الزينة . وانتهىٰ بهذا كله الىٰ الافتعال الذي يحسه قارئ شعره في كثير من الأحيان ، على إعجابه بالمعنىٰ المولد المبتكر في ذاته . ومن هنا يصح ما قاله الدكتور مندور عن عجز هذا المذهب عن

(١) انظر كتاب : النقد المنهجي عند العرب ص ٨١ وما بعدها .
(٢) المصدر نفسه ص٨٥ . وما بعده منه ، ثم الصفحات التي تليها .
(٣) المصدر نفسه ص٨٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صياغة الشعر من « معطيات الحواس المباشرة التي هي مادة الشعر وسبيله إلىٰ إثارة الصور في نفوس السامعين . وبعث الأصداء الملازمة للواقع » ، لأن أصحابه كانوا يفكرون اكثر مما كانوا يشعرون .

٦ ـ وتفسيرنا للمذهب الذي سلكوه يعود بنا إلىٰ بداية النزعات التجديدية في الشعر العربي . فقد كان العرب يحيطون شعرهم القديم بما يشبه القداسة لأنه يضم جملة تراثهم الثقافي من ناحية (الشعر ديوان العرب)[1] ، ويرتبط ارتباطا قويا بالدين من ناحية اخرى . فمنه تستخرج شواهد اللغة التي هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف . فمن هنا كان تطلعهم الدائم إلى نماذجه وأساليبه وصوره ، وانطباع أذواقهم بمقتضاها وكان اللغويون والرواة يمجدونه لهذا السبب ، ولأنه بضاعتهم التي يحرصون عليها . فكانوا يعززون في الناس هذه النزعة إلى « تقديسه » وروايته ومحاكاة نماذجه والوقوف عند حدودها . حتى اذا جاء شاعر كأبي نواس فريد الأصالة[2] ، شفاف الروح ، عذب النفس ، بدعوته الى تجديد الاحساس بالعصر وحياته ومشاهده وهمومه ، اضطر الى أن ينحني في شعره الذي يتوجه به إلىٰ الآخرين (المدائح) للنموذج الشعري القديم ، ويخرج هو نفسه فيه على دعوته التي دعاها بالاضراب عن الوقوف على الأطلال ومساءلتها واستنطاقها . فيقف هو نفسه على الاطلال في المطالع ، ويسائلها كما يفعل الشعراء الآخرون .

---

(١) يقول المرزوقي في مقدمة شرحه لحماسة أبي تمام « إذ كان الله عز وجل قد اقام الشعر للعرب مقام الكتب لغيرها من الأمم ، فهو مستودع آدابها ومستحفظ انسابها وديوان حجاجها يوم الخصام » .

(٢) الاصالة هي جملة الخصائص القومية العامة التي تنبثق منها الخصائص الفردية لدى الأدباء على اختلاف أمزجتهم وتكوينهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد كانت دعوته في مرحلتها انطلاقا في تجديد الشعر العربي من أبوابه المشروعة، فكانت خليقة أن تكون منطلقا لحركات تجديدية واسعة من بعد، لو تيسّر لها أن تستمر من بعده. لكنها حوصرت وانتهت لأسباب كثيرة ، ليس هنا موضع بيانها . والمهم أن هذه الدعوة كانت قادرة على تجديد مضامين الشعر النفسية، إلى أن يحس الناس من بعد بالمفارقات الصارخة التي لا بد أن يحسوا بها بين المضامين الجديدة ووسائل التعبير الشعرية القديمة ، فيكون في هذا الاحساس حافز الى تجديدها حتى تلائم المضامين الجديدة ، على نحو ما وقع من حركة التجديد الشعرية في العصر الحديث .

ولكن الدعوة بقيت صرخة مفردة ماتت بموت صاحبها . واستمر الشعراء يرون في النماذج الشعرية التقليدية مثلهم الفني الأول . وجاء أبو تمام بطموحه الذهني العريض وثقافته الشعرية الواسعة وتكوينه الفكري القوي فحاول أن « يرقص في السلاسل » كما يقولون ، رقصات جديدة : مضامين قديمة ووسيلة تعبير يتصبب العرق في تجديدها تجديداً لا يوحي به الاحساس بالتغير قدر ما توحي به الرغبة في التغيير . ومن هنا كانت غلبة الذهن في عمله الشعري ، فأصبحت صياغة الشعر معه ، كما قلنا ، إسرافا في التفكير وتعميقا للمعاني ومبالغة في الزينة ، ومن ورائها الاغراب والتجريد والغموض .

٧ — هذه اذن ، في رأينا ، كما قلنا ، حقيقة الصراع بين المذهبين اللذين تجرد الآمدي للموازنة بينهما ، ممثلين في زعيميهما أبي تمام والبحتري . ولا يمكن أحداً أن ينكر ميل هذا الناقد إلى البحتري . ولعل الآمدي نفسه لم ينكر هذا في بعض تضاعيف كتابه . فجاء تلميحا وتعريضا في أكثر الأحيان . ولكننا يجب ألا ننسى أن الآمدي كتب كتابه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بعد قرن تقريبا من رحيل الشاعرين . فميل الناقد الى البحتري ليس له إلا سبب واحد في رأينا ، هو ذهابه مذهب الآمدي في فهم العمل الشعري ، وعليه بنىٰ موقفه من شعر الشاعرين .

ومذهبه في فهم العمل الشعري يتضح منذ فاتحة الكتاب . يقول : « فإن كنت ، ادام الله سلامتك ، ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ، ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق فالبحتري أشعر عندك ضرورة . وان كنت تميل إلىٰ الصنعة والمعانيٰ الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوي على ما سوى ذلك . فأبو تمام اشعر لا محالة »[1] . ويقول من بعد في « احتجاج الخصمين » ، على لسان صاحب البحتري – ولعله هو الآمدي نفسه – نقلا عمن سماهم في كتابه : « أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ، ثم اتبعه أبو تمام واستحسن مذهبه ، وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من بعض هذه الأصناف ، فسلك طريقا وعرا ، واستكره الألفاظ والمعاني ، ففسد شعره وذهبت طلاوته ، ونشف ماؤه ... وتلك عقبىٰ الإفراط وثمرة الاسراف »[2] ثم يقول في « باب فضل البحتري » : « وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتي وقرب المأخذ واختيار الكلام ، ووضع الألفاظ في مواضعها ، وأن يقترن المعنىٰ باللفظ المعتاد فيه ، المستعمل في مثله ، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه . فإن الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف: [3] » . ويتابع قوله في الباب نفسه : « وإذا كانت طريقة الشعر غير هذه الطريقة ،

---

(١) الموازنة ١/٧

(٢) الموازنة ١/١٨

(٣) الموازنة ١/٤٠٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكانت عبارته مقصرة عنها ، ولسانه غير مدرك لها ، حتى يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان أو حكمة الهند أو أدب الفرس ، ويكون أكثر ما يورده منها بألفاظ متعسفة ونسج مضطرب ، وان اتفق في تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف وسليم النظر ، قلنا له : قد جئت بحكمة وفلسفة ومعان لطيفة حسنة ، فإن شئت دعوناك حكيما أو سميناك فيلسوفا . ولكن لا نسميك شاعرا ، ولا ندعوك بليغا ، لأن طريقتك ليست على طريقة العرب ، ولا على مذاهبهم ... وينبغي أن تعلم أن سوء التأليف ورداءة اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميه حتى يحوج مستعمه الى طول تأمل[1] » .

فهذه المقتطفات التي نقلناها بحروفها من كتاب الآمدي تعني أن فهمه للعمل الشعري قريب من فهم أصحاب المدرسة الفنية التي ترى أن الأدب يبلغ غايته « بجمال الصياغة وسحرها » . وأنه « يفضل خصائص الصياغة يثير لدينا صورا خيالية أو انفعالات شعورية أو احساسات فنية »[2] . وعلى هذا النحو نجد أنفسنا قريبين جداً من مذهب العرب الفني في الشعر الذي سماه الآمدي نفسه « عمود الشعر » .

فليس غريباً اذن أن يميل الآمدي الى البحتري الذي يمثل في نظره ، في صياغة الشعر ، خصائص هذا المذهب الأصيل .

ففي (الموازنة) اذن ميل إلى احد المذهبين يمليه اسلوب الآمدي في فهمه للعمل الشعري ، وليس فيها على التحقيق تعصب يمليه الهوى و العجز

(١) المصدر نفسه ٤٠١/١ ـ ٢

(٢) منهج البحث في تاريخ الآداب للانسون . ترجمة مندور (ملحق بكتابه : النقد المنهجي عند العرب) ص٤٠٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن فهم أبي تمام، والتعبد الأعمى للقديم والكره للحديث واصحابه، على نحو ما يظن بعض الباحثين في القديم والحديث . ولعل من رمى الآمدي بالتعصب من باحثينا المحدثين قرأ شيئا من ذلك في كتبنا القديمة وتأثر به، مثل ما نقرأ في معجم الأدباء لياقوت(١) عن الآمدي : « انه جد واجتهد في طمس محاسن أبي تمام وتزيين مرذول البحتري ... ولو أنصف وقال في كل واحد بقدر فضائله لكان في محاسن البحتري كفاية عن التعصب بالوضع من أبي تمام » . ولعل بعضهم أعجبه الرأي فالتزمه لافتتانه بصنعة أبي تمام ، وجرياً مع مذهبه في أن الشعر صناعة كلما اشتد تعقيدها والتفنن فيها علت منزلتها في سلم الفن الشعري .

٨ – والآن : وقد حاولنا أن نحيط بأسباب الخلاف بين المذهبين ، وأسلوب الآمدي في فهم العمل الشعري الذي مال به إلى جانب البحتري ، نسأل : فما منهج الآمدي الذي سلكه في الموازنة بينهما ؟ وما قيمة هذا المنهج ؟

فأما المنهج فهو المنهج التأثري القائم على تحكيم الذوق المدرب في العمل الشعري ، والمسوّغ بالمعرفة الموضوعية . وما زال هذا المنهج قائما في النقد ، وسيظل قائماً فيه مهما تعددت مذاهبه وأساليبه . فالذوق لا غنى عنه في كل نقد ما دام الأدب رموزا صوتية غايتها الاثارة الوجدانية والجمالية ، عن طريق الصياغة (صياغة الألفاظ والصور) . والمعرفة التي تدنينا من فهم هذه الصياغة وحسن ذوقها أولاً ، ثم من تفسيرها والتعليل لها من بعد ، معرفةٌ مركبة تشمل علوم اللغة بفروعها ، وموسيقا الشعر والبلاغة والجمال ، فضلا عن الاحاطة بعلوم أخرى تتصل بفهم روابط العمل

(١) ٨/ ٨٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشعري بالحياة كالتاريخ والاجتماع والنفس . وهذا يستلزم استيعاب التراث الشعري القديم وفهمه حتى نستطيع أن نتمثل روحه القوي الساري في شعرنا الذي يستمد منه الشعراء أصالتهم .

والمهم هو تمييز هذه الأصالة في العمل الشعري ، أي تمييز الأسلوب الخاص بالشاعر في التفكير والاحساس والتصور ، الذي يرتسم في الصياغة . ويتم هذا ، كما نعلم ، بدرس ما في العمل الأدبي من قيم عقلية وعاطفية وفنية واقامة صلتها بالحال النفسية لصاحبها ، ومن ثم تمييز صياغته لها من أساليب الصياغة التي نعرفها في اللغة . ووسليتنا في هذا كله احساسنا الخاص وذوقنا الشخصي مستعينين بتجاربنا الشخصية السابقة ، وبمعارفنا التي أشرنا إليها ، وبالدربة والتمرس اللذين يصقلان الاحساس الشخصي وينميانه . ثم يكون التعليل من بعد عصمة لهذا الذوق من الانحراف والميل مع الأهواء المكشوفة والمدفونة . وعند هذه النقطة عينها تكمن اصعب صعوبات المنهج كما يقول لانسون(١) : ضرورة الذوق الشخصي وخطره في وقت واحد ، فنحن لا نستطيع أن ننحيه ، كما رأينا ، في ذوق الأعمال الأدبية والاستجابة لخصائصها العاطفية والفنية ، لأنه وسيلتنا الأولى في ادراكها. ولكنا لا نستطيع ، في الوقت نفسه، أن نطمئن إلى سلامة حكمه وبعده عن كل أسباب الانحراف العميقة والمكشوفة .

فليس أمامنا اذن الا أن نكون يقظين في استخدامه، وأن نستكمل له ما استطعنا أسباب الاستقامة في التقويم ، عن طريق مراقبته وتنقيته واغنائه وصقله في وقت واحد . وفي هذا كله نحتاج إلى التسلح بالدقة

---

(١) منهج البحث في تاريخ الآداب : ترجمة الدكتور محمد مندور (ملحق بكتاب النقد المنهجي عند العرب) ص٤١٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والتجرد والتثبت والحذر والصبر والتمرس والمعرفة . فهكذا يستقيم المنهج بالجمع بين التأثر الشخصي المدرب وبين المعرفة الموضوعية ، على نحو تتولى معه هذه المعرفة مراجعة التأثر الشخصي ومراقبته والتدقيق في أحكامه والتثبت من صحة وقائعة ، وتقديم العون له ليكون أقرب ما يكون الى الاستقامة والنفاذ والسلامة . وبكلمة أخرى يجمع هذا المنهج بين التأثر والتعليل ، التأثر الذاتي بالعمل الأدبي ثم بالتعليل لهذا التأثر بتحليل العمل الأدبي تحليلا موضوعيا ، في ضوء حقائق التاريخ والعصر والحياة والنفس البشرية ، وحقائق اللغة وبلاغتها وطرق صياغتها العامة .

٩ – ليس الآمدي في رأينا اذن ناقدا يغلب الشكل على المضمون ، وليس ناقدا يعتسف لنفسه « عمودا للذوق » يريد أن يملي أحكامه على الآخرين[٢] . ولكنه في رأينا ناقد يعود في نقده إلى خير ما في الشعر العربي ، ويريد أن يستخلص منه معاييره وينصبها للحكم على الشعر ، لأنه يعتقد بسلامتها وجدارتها واستقامتها في تقويم الشعر العربي .

وليس في هذا ، كما نرى ، تحكم ولا تحيز ولا تغليب للشكل على المضمون ، بل هو في نظرنا رغبة صادقة في أن يبقى الشعر شعرا يتذوقه العرب ، فلا تطغى عليه الذهنية ولا النثرية ولا الافتعال والاحالة والاغراب والتجريد . وليس من خصومة الفكر في الشعر أن نشترط ألا تطغى برودته في الشعر على قوة الانفعال وحرارته . فالفكر البارد وحده لا يصنع شعرا ، كما يقول الآمدي ، وإن صنع حكمة أو فلسفة ولكن الفكر الحامي الذي يصرخ في جنبات النفس وجنبات الكون على السواء هو الذي يصنع

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص١٦٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشعر . ومثل هذا الفكر هو الذي يأتي معه « حسن التأتي وقرب المأخذ واختيار الكلام ، ووضع الألفاظ في مواضعها ، وايراد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله ، وتكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه »[١] . ثم ان الآمدي لم يدع لنفسه الاحاطة بطريقة العرب عن غير بينة ، فقد ملأ موازنته بالشواهد والأمثلة التي انتزع منها مقاييسه في استعمالات اللغة وصورها وتمثيلاتها ومعاني ألفاظها ومجازاتها . قد يخطئ ،ولكنه الخطأ الذي يقع فيه الناقد ، في قوة التعليل واستقامته ، أو في نقصه وانعدامه أو انحرافه أو ضيقه ، أو في الافراط بالتأثرية والتواني عن مراقبتها وتتبعها . فذلك لا ينال من صحة الموقف الذي يقفه من الشعر في الأصل[٢] ، ولا يضيق على أصحابه ويحدد أمامهم مجالات الابتكار في الاستعارات والتمثيلات ، بحجة الوقوف عند الحدود التي وقف عندها الذوق العربي . فان الابتكار كلمة غامضة واسعة ما أحوجنا فيها الى التحديد ، والا كثرت المزاعم وأغرقتنا الوساوس .

(١) يقول : « والمطبوعون وأهل البلاغة لا يكون الفضل عندهم من جهة استقصاء المعاني والاغراق في الوصف ، وانما يكون الفضل عندهم في الالمام بالمعاني وأخذ العفو منها كما كانت الأوائل تفعل ، مع جودة السبك وقرب المأتى . والقول في هذا قولهم واليه أذهب » ٤٩٦/١

(٢) انظر مثلا ما يقول الشريف المرتضى في تتبعه لبعض نقد الآمدي لشعر أبي تمام : « وهذا من الآمدي قلة نقد للشعر وضعف بصيرة بدقيق معانيه التي يغوص عليها حذاق الشعراء » . فهذه التهمة في رأينا ، بصرف النظر عن صحتها أو خطئها ، أقرب الى الآمدي من اتهامه بالتعصب والميل مع الاهواء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net